الشقاء المقدّس ...!(*)

[إلى الذين يعيشون في مأتم الروح ... عزاء من الحياة]

للأستاذ أنور المعداوي

كانت أجمل امرأة في عصرها ، وكانت أشقى امرأة ... أما جمالها فحسبه أنه كان وحياً لأمير النثر الفرنسي شاتوبريان ، وأمير الشعر لامرتين ، وسيد كتاب القصة الثانية بنجامان كونستان . وأما شقاؤها فلو قدر لفنان أن يصنع تمثالا للجمال اليائس ، أو يرسم لوحة للأمل اليائس ، لما وجد لفنه خيراً من قصة مدام ريكاميه !

عندما وفدت إلى باريس عام ١٧٩٣ ، كانت الثورة الفرنسية المجنونة تلتهم أبناءها في غير رفق ولا هوادة . وكانت نفس الصغيرة جولييت برنار تفيض أسى ولوعة ، لمنظر الذاهبين إلى المقصلة : نساء ورجال ، في ميعة الصبا وبكر العمر ... يذهبون إلى غير رجعة . وشعب يصفق للدماء المراقة تجرى هنا وهناك ، وهو أبداً ظمآن لا يرتوى ! ... أية نفوس تلك التي خلت من معاني الرحمة وأية قلوب تلك التي تحجرت فلا ينبض فيها عرق بعاطفة ، وأية عقول تلك التي أذهلتها القسوة فلا تصغى لصوت بريء ولا تحفل بشكاة مظلوم ؟! ... كانت جولييت الفاتنة تحدث نفسها بهذا كله وهي تصبح وتمسى على منظر واحد : مقصلة ، ودماء ، وشعب يلهو بضحاياه كما يلهو عالم التشريح بحيوان بائس ، يئن تحت أطراف مبضعه ... ولكم ودت أن تفر من هذا العذاب إلى بلد آخر ، تنعم فيه بالهدوء والصفاء والأمن ، وتلقى بذ بها في أحضان الطبيعة الحانية : تشبع عينيها من النهار المشمس والليل المقمر ، وتملأ رئتيها من الهواء النقي ، يحمل إليها رائحة الزهر لا رائحة الدم ، وغناء الطير لا أنين الضحايا ، وتلقى نفوساً لم يدنسها حقد ولا ضغينة ، بل يجمع بينها صفاء ووفاء ، ووداعة وقناعة ، ولكن أين هي من هذا كله ؟ ... لقد قدر لها منذ أن فتحت عينيها على الوجود ، أن تعيش في العذاب : إحساساً ورؤية !

كانت في ربيعها الخامس عشر حين كان مسيو ريكاميه يتردد على بيت أبويها ، وكان أبواها يدركان أن ريكاميه الثري وصاحب المصرف الشهير ، لا يتردد على بيتهما إلا لأنه يحب ابنتهما كل الحب ، ويعجب بها كل الإعجاب ... وما أكثر الذين كانوا يتهافتون على جمالها النادر فيرتدون على أعقابهم إلا ريكاميه ، فقد وصل . وصل بجاله إلى قلب الأم والأب ، ولكنه لم يصل إلى قلب جولييت ... وحين خطبها إلى أبويها ألحا على ابنتهما أن تقبله زوجاً فقبلت على مضض ! كان في الأربعين من عمره ... خمسة وعشرون عاماً تفصل بين قلبين ، ومزاجين ، وشعورين . وهنا يلتقي الخريف بالربيع ، وربيع حياتها بخريف حياته ! وعاشت في قصر ريكاميه كما تعيش الملكات ، ولكنها كانت تحس القفر في كل مكان تطؤه قدماها ... لقد مضت بها الأيام تلفة متشابهة ، لا يشع فيها أمل يبدد من ظلام القلب والروح . أي شباب هذا الذي تقذف به المقادير في خضم من أعاصير الحيرة ، فلا يدري على أي شاطىء ترسو سفينة أحلامه وأوهامه ؟! ... لقد مرت شهور ومدام ريكاميه لا تزال عذراء كما كانت . حياة كلها غموض وأسرار ، ولقد كان الحياء وحده هو الذي يمنعها أن تسأله عن سره ... سره الذي طال ! أي إنسان هذا الذي يحوطها بعطفه وحبه وحنانه ، ثم لا يقربها كما يقرب الأزواج ... ؟! كانت تتعذب في صمت ، وتبكي للجمال يذوى بين يدي الحرمان ، ولا تجد الجرأة على أن تفاتحه يوماً بما يعتلج في نفسها : أليس رجلاً ؟ أليس زوجاً ؟ ألا يهزه هذا الجمال ؟ ألا يصير راهباً إلا حين تربط بينهما المقادير ؟! وتتلظى الكلمات على شفتيها كصفوف جيش أعدت للهجوم ، وتلتهب الأفكار فيما بينها التهاب المقابل ... ولكنها حين تلقى بزوجها وجهاً لوجه ، تموت الكلمات ، وتخور العزيمة ، وتخمد الجرأة ، ولا يبقى إلا الحياء يشل منها اللسان ، ويجعل منها إنسانة ضعيفة مسلوبة

(*) عن كتاب « مدام ريكاميه » للسياسي الفرنسي الكبير إدوار هريو ، ومراجع أخرى .

الإرادة ! كانت تتلهف إلى شيء واحد ... هو أن تعلم سره . ولكن سره الرهيب كان أمنية بعيدة المنال ، وعاشت مدام ريكاميه وماتت ، دون أن تعلم شيئاً. لقد عاشت عذراء ، وماتت عذراء !!

ثلاثة هم الذين كانوا يعلمون سر ريكاميه : الله ... وهو ... وأمها ! ! كان يمكن أن يبوح مسيو ريكاميه بسره إلى زوجته ألا ما أقسى سخرية القدر ! ... أيقول لها إنه أبوها ، وإنها ثمرة حبه من أمها ؟! أمن المعقول هذا ؟ زوج وأب ؟ وتريد ابنته أن يباشرها كزوج ؟ ... إنه يحنو عليها كما لم يحن على إنسان ، ويؤثرها بحبه وعطفه ورعايته ، ليُنسيها على مر الزمن هذا الذي تفكر فيه ، ويرمض جوانحها بالعذاب ! واستطاع مسيو ريكاميه على الأيام أن يحل الروح من نفسها محل الجسد ، وأن يزيح من كاهلها كثيراً مما تعانيه .

أما لماذا تزوجها وهو يعلم أنها ابنته ، فذلك سر آخر ... كان ريكاميه من أنصار الملكية ، وكان ينتظر يومه الذي لا مفر منه على أيدي الثوار . وكان يدرك أن المقصلة في انتظاره ، وإذا كانت قد أخطأته اليوم فلن تخطئه غداً ، فلمن يترك ملايينه بعد مصرعه ؟ ليس هناك من يستحقها غير ابنته .. جولييت برنار ! ومن هنا تزوجها ليكفل لها حياة هنيئة ، يسعد فيها هذا الجمال الذي ينتسب إليه . كان يخشى أن يثير الظنون إذا ما ترك لها ثروته دون علاقة تربط بينها وبينه ... ولكن المقصلة تخطئه ، والثوار يغفلون عنه ، ويقدر لمسيو ريكاميه أن يعيش ليتعذب وأي عذاب ! أكثر من هول الشعور الذي كان يرزح تحت أثقاله .. الشعور بأن زوجته هي ابنته ؟! لكم ود أن يطلقها ولكنه لم يستطع ، إنها ابنته ومن حقها وحدها أن تنعم بثروة أبيها . وماذا يقول الناس ، وماذا يقول زوجها الآخر إذا ما قدر لها أن تتزوج من بعده ، حين يكتشف أنها خرجت من بيته وهي عذراء ؟ ! أليس في ذلك ما يجرح كرامته كرجل يعتز برجولته ؟ أليس من المحتمل أن يكشف سره فيتهامس به الناس ، فلا يلبث أن يكون حديثاً تجهر به الشفاه ؟ ! ... ويلح عليه العذاب حين يخلو إلى نفسه ، ويشعر أن زوجته ، تلك الزنبقة الغضة ، قد أرغمت على أن تعيش بجنبه بين حق الرمال ولفح السمائم ! شيء واحد كان يعجب له مسيو ريكاميه ولا ينتهي له عجب ، هو ما تتحلى به ابنته من طهر وعفاف ، على الرغم من أن حياتها الزوجية قد خلت من الرجل ! ... لقد كانت مدام ريكاميه محط أنظار الشباب وحديث أمانيهم ، يتهافتون عليها في كل مكان من أجل نظرة أو ابتسامة . وما أكثر ما كانت تنظر إليهم وتبتسم لهم ، وتضن عليهم بما دون ذلك ... إنها امرأة ، وجيلة ، فلم لا تفيض على ركب المعجبين من هذا النبع الفياض ، وهم الذين يشعرونها في كل لحظة بأنها إنسانة ساحرة ، تنطق بذلك وجوههم فلا حاجة بها إلى مرآة ! ! من هنا كان ريكاميه يعجب بها ويعجب لها ، وتزداد حبه لزوجته وتقديره لابنته ... وكانت مدام ريكاميه تنسى مرارة الحرمان حين ترمقها نظرات المعجبين ، وحين تنادي شفتيها شفاه الظامئة ، فتمتنع وفاء للزوج ، واستجابة للضمير ، وإرضاء للدلال ! ... جمال تتقاذفه أمواج الحرمان فحرم من نعيم الحياة وحرم معه الناس ، وزهرة ندية بالعطر فواحة بالأرج ، عاشت في تربة من عفاف وصون فعزت على القاطفين !

كان قصرها في « كابشي » أشبه بندوة عامرة يؤمها رجال السيف والقلم بين حين وحين ، وسالوناً من تلك السالونات الفخمة التي كانت تزخر بها باريس ويقصد إليها المترفون من الرجال والنساء لتغذية العين والفكر والخيال ... وفي يوم من أيام قصرها الحافلة بالترف والإيناس والمتعة ، يقع لمدام ريكاميه حادث يهز كيانها هزاً عنيفاً ، وتتذوق في خلاله طعم الزي ، وتنسى حرقة الظمأ ، وتشعر كما لم تشعر من قبل ... بأنها امرأة ! كان ذلك في حديقة القصر حين ركض وراءها ابن أخت ريكاميه ، وكان شاباً جميلاً من ذلك النوع الذي يخلب ألباب العذارى ... وكانت هي تنفر منه في دلال ، وتضحك من عجزه عن اللحاق بها ، ولكنه يلحق بها ويحتويها بين ذراعيه ... وكادت تصعق من هول المفاجأة ، فراحت تقاوم في عنف ، ولكنها أحست بوجهها يلتهب تحت أنفاسه المحترقة ، وبشفتيها تذوبان في شفتيه ، وبكيانها يتلاشى في كيانه . وفي غمرة النشوة رأت نفسها تغيب معه في حلم جميل ، وتطوق عنقه بذراعيها ، وتدفن وجهها في صدره ، وتنظر في عينيه نظرة طويلة حالمة ... نظرة امرأة استيقظ في أعماقها الرجل ! وحين أفلتت من بين يديه تطلعت إليه كغزال مذعور ، وانطلقت تجري إلى القصر ... كانت تريد أن تخلو إلى نفسها لتستعيد الحلم الجميل مرة أخرى !

حرك هذا الحادث فى نفس مدام ريكامييه كل عاطفة خامدة ، وأثار كل شعور كامن ... وراح الفكر الحيران يسبح فى خضم الوجود ، باحثاً عن أمنيات ضلت طريقها من طول ما لقيت من ظلام وضباب . والذعن الكليل يحلق فى أجواء الخيال ، يبنى من قصور الأوهام ما شاءت فنونه وشجونه . والقلب الثائر يرسل أناته فى نبضاته ، فلا يسمع لها صدى من عطف حبيب أو رفيق ، والروح الشاردة تعبر عالم الأمس والآتين مرتاعة ملتاعة ، تنشد الرى فلا تجد إلا الظمأ ، وتترقب الدشوة فلا تحس إلا الألم ، وترجو الفرحة فلا تلق إلا الشجن ، ولا تعود من عالمها هذا إلا بأشتات المنى تحتضر !

وتمضى الحياة فى طريقها تطوى الأيام حتى تقف بمدام ريكامييه عند يوم لا ينسى ... لقد رآها نابليون فى ذلك اليوم فى حفلة من تلك الحفلات الصاخبة التى كان يمج بها قصر أخيه لوسيان !

كان لوسيان يهيم بها ، ويتقرب إليها ، ويلقى إلى الصيد الجميل بكل ما شاء من شباك ، ولكنه لم يكن يظفر إلا بابتسامة عذبة تحمل إليه كثيراً من المعانى ... ولوسيان من هو ؟ رجل تحلم به كل فاتنة ، ووزير الداخلية ، وأخو القنصل الأول والحاكم بأمره ! وعلى كثرة الوجوه الفاتنة التى كانت تزخر بها حجرات القصر وردهاته ، فإن نظرات بونابرت النفاذة لم تستقر إلا على وجه مدام ريكامييه ، وحين مرت به لعوباً كما مرت بغيره ، راح يسأل الجنرال برنادوت عن هذا الجمال الذى لم يحفل بنظرات القنصل الأول :

— برنادوت ... أتعرف هذه الفاتنة ؟

— أية فاتنة يا مولاى ؟ !

— تلك التى تتحدث إلى أخى لوسيان ...

— أتعنى مدام ريكامييه يا صاحب الجلالة ؟ !

وهتف بونابرت فى صوت حالم : مدام ريكامييه — يالها من امرأة — !

وغادر المكان وفى رأسه ثورة تحتدم ... لقد قرر أن ينالها مهما يكن الثمن ، وأن يخوضها معركة حامية — ضد امرأة !

ويالها من معركة كانت أسلحتها من أهداب وجفون ... معركة لم يكن يقدرها أن تطول ، وأن تنتهى بهزيمته ! لقد جرب القائد الشجاع كل سلاح ، واستنفد كل خطة ، وحارب فى كل ميدان ، وحين باء بالخذلان راح يصب نقمته على الجمال النادر ... وابتدأت حياة العذاب ، تلفح بنارها الوجه المشرق ، والثغر الباسم ، والعينين الساحرتين ... وعلى مر السنين ، وتحت وطأة الشجن ، ذبل الشباب النضر ، وسكت الصوت العذب إلا من أنات !

لقد بدأ النضال بين بونابرت ومدام ريكامييه فى ذلك اليوم الذى قبض فيه على أبيها ، أعنى زوج أمها ، ليحاكم فى اليوم التالى بتهمة الخيانة العظمى ... كان الرجل مديراً عاماً للبريد ، وكان من الذين يدينون بالولاء للنظام الملكى ، فاشترك فى إيصال بعض المكاتبات للحزب الملكى الذى كان يعمل فى الخفاء ضد الحكم القنصلى ... لقد خارت قواها فى ذلك اليوم من هول الصدمة ، ومضت تنشد العون عند كل صديق ، لتبعد شبح المقصلة عن الرجل الذى كانت تظنه أباها . ويتوسط لها الجنرال برنادوت ، ويصحبها إلى قصر التويلرى لمقابلة القنصل الأول ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى يرى فيها بونابرت مدام ريكامييه ... وخضع الجبار لسطوة الجمال القاهر ، فأمر بحفظ الدعوى والإفراج عن الرجل ! وخيل إلى الصقر الفرنسى أنه بهذا الصنيع الذى أسداه إلى الحمامة الوديعة ، خيل إليه أنه يستطيع أن يدنيها منه حين يشاء ، وأن يخضعها لرغباته !

وتدور عجلة الزمن ، ويصبح القنصل الأول امبراطوراً تدين له فرنسا وما حولها بالطاعة والولاء . وعلى الرغم من المهام الكثيرة الملقاة على عاتقه ، وما يشغل فكره من أمجاد وأطماع ، فإن صورة مدام ريكامييه ما فتئت تداعب أحلامه وأمانيه ... عرض عليها أن تكون وصيفة لزوجته الإمبراطورة فاعتذرت عن قبول هذا الشرف فى لطف ولباقة ! كانت خطة محكمة رسمها القائد العظيم لينهى بها المعركة التى طالت ، وكان يهدف من ورائها إلى أن يدنى منه مدام ريكامييه ... وحين ألح عليها أن تقبل ما عرضه عليها ، اعتذرت مرة أخرى فى عزم وإباء ... كل شىء قد خضع لنابليون إلا مدام ريكامييه ! ومن هنا أعلنها حرباً سافرة لا تبقى ولا تذر ... وتحت ضرباته الرهيبة المتوالية ، هوى الجمال النادر من قمة الثراء إلى حضيض الفاقة ... وفقدت مدام ريكامييه كل صديق ، وانطلقت الأراجيف تنال من سمعتها كل منال ، ولقى كل من ينتسب إليها أعنف ألوان الاضطهاد والتشريد ... هذه صديقتها الكاتبة الفرنسية الشهيرة مدام دى ستايل يلقى بها بونابرت بعيداً عن أرض الوطن ، ولا يلبث أن يلحق بها صديقها الآخر بنجامان كونستان ! أما مسيو ريكامييه

فقد أمر بونابرت بأن يقطع عنه بنك فرنسا كل معونة مالية ، وأسرع الناس يسحبون ودائعهم من مصرفه ، وحين أوشك على الإفلاس ، لم تجد مدام ريكاميه بداً من أن تتوسل إلى الجنرال مينو حاكم باريس ليشفع لها لدى الإمبراطور ... ورفض بونابرت ، وبصيح بشماته صارخاً في وجه صديقه :

قل لمدام ريكاميه إنني لست مشيقاً لها حتى أتنشلها من مهاويها ... وهكذا تردّى مسيو ريكاميه إلى هوة الفقر والشقاء ، وذاقت معه مدام ريكاميه طعم البؤس والحرمان كما لم يذقه إنسان

وحين فقدت أمها وهي آخر أحبابها وأعز أمانيها ؛ قررت أن تهجر فرنسا أرض العذاب ، لتلحق بصديقتها الوفية مدام دي ستايل ... وهناك على شاطئ بحيرة ليمان في سويسرا ، التقى قلب بقلب ، وتصافحت روح بروح ، وامتزجت دموع بدموع ! وفي رحاب صديقتها وعلى مر الأيام استطاعت مدام ريكاميه أن تنسى بعض آلامها وأن تجد اقلبها بعض العزاء ... لقد التقى بها أحد الأمراء البروسيين ، وكان له من جماله وشبابه ونبل محتده ما ألهب عواطفها الخامدة . وحين صارحها بحبه ، تفتح له قلبها المغلق كما تتفتح الزهرة تحت أندى الفجر ... وراحت تكتب إلى زوجها مسيو ريكاميه ، طالبة إليه أن يطلقها لتتزوج من الرجل الذي أحبها وأحبته . وعند ما تلقت رد زوجها من باريس لم تملك إلا أن تبلل سطوره بالدمع ! ومضت تقرأ وهي لا تكاد تتماسك من الأسى واللوعة : « عزيزتي جوليت ... لم أكن أنتظر أن أفقد كل شيء في دنياي حتى زوجتي الحبيبة ... ذلك الأمل الأخير الذي كان يسطع في أفق حياتي فينير لي الطريق ... ما أقساك يا جوليت ؟ ... إنك لا ترحمين وحدتي وغربة روحي . أتريدين أن تتخلي عني لأنني أصبحت فقيراً ؟ ... أنا الذي ضحيت بمالي في سبيل إسعادك ! ... إن كان ذلك يسعدك يا جوليت ، فلا يسعني إلا أن أفسح لك الطريق ... وإلا أن أدعو لك الله ... دعاء تباركه الدموع » . وحين فرغت من تلاوة رسالته الحزينة ، تطلعت إلى الأمير أوجست وهي تقول له : يا صديقي ، أرجو أن تغفر لي ... لقد عدت إلى قلبي آلامه ، فوجدت أن زوجي هو الرجل الوحيد الذي أحببته ... لك دموعي ، ووداعاً ! وشدت رحالها مرة أخرى إلى فرنسا ... إلى أرض العذاب ، فما عادت تطيق البقاء في ذلك المكان الذي لف حبها في أكفانه .

وإلى جانب مسيو ريكاميه راحت في مأتم الأحلام تقتات على بقايا الذكريات ... ولكن الذكريات تلح على القلب المحزون فيطول ليلها ويطول أرقها في رحاب الشجن . ويشير عليها الأطباء بتناول بعض المخدرات لتنعم عن نفسها الأرق فلا يغلع الدواء ... ويخطر لها ذات يوم أن تضع حداً لهذه الحياة المريرة ، فتتناول زجاجة فيها سائل سميت ، وحين تهم بوضعها على شفتيها يسرع ريكاميه وهو لا يملك نفسه من الفزع ... ويختطفها من بين يديها وهو يصيح صيحة ملتاعة : ابنتي ... ابنتي ! . وتطلعت إليه في ذهول كمن أفاق من حلم مروع ، وأخذت تنظر إلى عينيه كأنما تريد أن تستل من أعماقها سر ما ينطق به لسانه ... وحين أوشك ريكاميه أن يفضي إليها بسره الرهيب ، دخل أبوها برنارد وانتابها شعور خفي لم تدرك له كنهاً ، شعور فيه حيرة تجلت في عينيها تساؤلا ولهفة ، ومضت تنقل بصرها بين الرجلين ، وصاحت وهي ترتمي في أحضان برنار : أبي ... أحبك يا أبي ! أما ريكاميه فكان يغالب دموعه !! وعلى الرغم من كل هذا العذاب ، فقد أمر نابليون بنفيها إلى خارج فرنسا حين علم أن بعض الرسائل تصلها من مدام دي ستايل ، تلك الكاتبة التي أصلته بقلمها ناراً حامية ، هي وصديقها بنجامان كونستان ... ومرة أخرى يمت شطر صديقتها الوفية ، والتقى قلب بقلب ، وتصافحت روح بروح ، وامتزجت دموع بدموع !

وحين دالت دولة الجبار ، عادت من جديد إلى أرض العذاب لتقضي بقية أيامها في أحد الأديرة ... بعيداً من الناس . وفي مكانها هذا المنعزل يقضي إلى جانبها أمير الشعر الفرنسي شاتوبريان أكثر أوقاته ، ويضفي عليها من عذوبة روحه ، وسحر حديثه ، وذوب قلبه ، ما يعزيها عن فقد الأحباب ، ولكن أين من يعزيها من فقد الشباب ؟.. لقد أطفأت الأيام بريق عينيها ، وعبثت بنضارة وجهها ، وحكمت على شبابها بالأفول !

وقالت له وهو يعرض عليها أن تكون شريكة حياته : يا صديقي ... إن حبك لي هو آخر واحة ترسل ظلالها في صحراء حياتي ... ولكن أصوات من سبقوني إلى الله ، تهتف بي أن أحل كما كنت ... مدام ريكاميه !.. ومع ذلك فماذا يجدي من التقاء قلبينا وضم جسمينا ، ونحن تحت الحطى إلى القبر ؟!.

وهكذا عاشت مدام ريكاميه ... وكانت حياة كلها شتاء ... شقاء مقدس !!

أنور المعداوي